الفصل الأول

كن في الدنيا كأنك غريب

تعريف الدنيا:

❋ **قال البغوي:** سُمِّيَتْ الدنيا دنيا لدنوها من الآخرة، وسميت الآخرة آخرة لتأخرها وكونها بعد الدنيا.

أي: لدنوها من العبد، فأقرب أحوال الإنسان إليه دنياه، وأبعد أحواله إليه أخراه، لأنها قصوى، فتأخرت عن أن تنكشف له إلا بعد الموت.

❋ **وقال آخرون:** سُمِّيَتْ الدنيا دنيا لدناءتها، كما جاء في الحديث «**لَوْ كَانَت الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»(١).

صفة الدنيا:

❋ **قال الفضيل بن عياض:** يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء، أنيابها بادية، ومشوه خلقها، فتشرف على الخلائق، فيقال لهم: أتعرفون هذه فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التي تناحرتم عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم يقذف بها في جهنم، فتنادي: أي ربِّ؛ أين أتباعي وأشياعي!!

فيقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - ألحِقُوا بها أتباعها وأشياعها.

حقيقة الدنيا:

❋ إن حب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة، وذلك لأنها دار فناء، ولا سبيل إلى بقائها، ولابد من لقاء الله، والدار الآخرة دار جزاء وبقاء، والمؤمن العاقل يعلم أنها لا بقاء لها، فلا ينشغل بعمارتها، ولا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذة ساعة براحة الأبد.

❋ **قال أبو الدرداء:** من هوان الدنيا على الله: أنه لا يُعْصَى إلا فيها، ولا يُنَالُ ما عنده إلا بتركها.

---

(١) **صحيح:** رواه الترمذي وغيره عن سهل بن سعد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٩٢).

❋ **وقال أبو سليمان الداراني**: إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها، فإذا كانت الدنيا في القلب لم تزاحمها الآخرة، لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة.

❋ **وقال محمد بن كعب**: الدنيا دار فناء ومنزل قلعة، رغب عنها السعداء، وانتزعت من أيدي الأشقياء، فأشقى الناس بها أرغب الناس فيها، وأزهد الناس فيها أسعد الناس بها، هي المعينة لمن أطاعها، والمهلكة لمن اتبعها، والخائنة لمن انقاد لها، عِلمُها جهل، وغناها فقر، وزيادتها نقصان، وأيامها دول.

❋ **وقال ابن حمدون**: إن الدنيا دار فناء، وعناء، وغير وعبر، فمن العناء أن المرء يجمع ما لا يأكل، ويبني ما لا يسكن، ثم يخرج إلى الله تعالى، لا مالًا حمل ولا بناء نقل، ومن الفناء أن الدهر موتر قوسه، ثم لا تخطئ سهامه، ولا توسى جراحه، يرمي الحي بالموت، والصحيح بالعطب، آكل لا يشبع، وشارب لا يروى، ومن غيرها أنك تلقى المحروم مغبوطًا، والمغبوط محرومًا، وليس ذلك إلا لنعيم زال، وبؤس نزل، ومن عبرها أن المشرف على أمله يقطعه أجله، فلا أمل يدرك، ولا مؤمل يترك، فسبحان الله ما أغر سرورها، وأظمأ ريها، وأضحى ما فيها، فكأن الذي كان من الدنيا لم يكن، وكأن الذي هو كائن منها قد كان، صار أولياء الله فيها إلى الأجر بالصبر، وإلى الأمل بالعمل، جاءوا الله تعالى في داره ملوكًا خالدين.

❋ **وقال المدائني**: الدنيا دار فناء وعطب، لا دار بقاء وسلامة، وإن الولد يموت، والدور تخرب، وما يجمع من الأموال يفنى.

وقال أيضًا: الدنيا دار ممر، لا دار مقر، والناس فيها رجلان: رجل باع نفسه فأوبقها، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها.

الإنسان والدنيا:

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ... ونال من الدنيا سرورًا وأنعامًا

كبانٍ بنى بيتًا فأقامه فلما ... استوى ما قد بناه تهَدَّمَا

إن الدنيا زائلة فانية، والآخرة آتية باقية، وإنك في الدنيا مسافر، ولا بد أن ينتهي سفرك وتصل إلى دارك، فتستقر بها وتنال الراحة واللذة والاجتماع بالأحباب الذين سبقوك في السفر، فاحتمل مشقات السفر الذي ينقطع عن قريب بالصبر على الطاعة وعن المعصية، وعلى شديد المعيشة ونحوها، واجتهد في عمارة دارك التي هي مسكنك بالحقيقة، وإصلاحها وتزيينها، بالإكثار من العبادات في هذا الأمد القليل، لتتمتع بها دهرًا مديدًا بلا نصب.

عَمَّـــرتَ دار فنـــاء لا بقـــاء لهـــا ... ظنًـــا بأنـــك عنهـــا غـــير منتقـــل
أتعبـتَ نفـسك لا الـدنيا ظفـرتَ بهـا ... وأنت لا شك في الأخرى عـلى وَجَـل
دار الإقامـــة أولى بـــالعمارة مـــن ... دارٍ نعيمُـــكَ فيهـــا غـــيرُ متـــصل
فاعمل لنفسك مـا ترجـو النجـاةَ بـه ... فلـيس يُنجيـك إلا صـالح العمـل

الزهد في الدنيا والإقبال على الله:

❋ **قال ابن القيم:** إذا استغنى الناس بالدنيا استغنِ أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فـافرح أنت بالله، وإذا أَنِسُوا بأحبابهم فاجعل أُنْسَكَ بالله، وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فَتَعَرَّفْ أنت إلى الله، وتودد إليه تَنَلْ بذلك غاية العز والرفعة.

❋ **قال بعض الزهاد:** ما علمت أن أحدًا سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو إحسان؛ فقال له رجل: إني أكثر البكاء. فقال: إنك إن تـضحك وأنـت مقر بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك، فإن المدل لا يصعد عمله فوق رأسه. فقـال: أوصني. فقال: دع الدنيا لأهلها، كما تركوا هم الآخرة لأهلها، وكن في الدنيا كالنحلـة، إن أكلـت أكلت طيبًا، وإن أطعمت أطعمت طيبًا، وإن سقطت على شيء لم تكسره، ولم تخدشه.

❋ **قال بعض الحكماء:** كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب الـدنيا ولا أكـون فيهـا، فـلا أسكن إليها، فإن عيشها نكد، وصفوها كدر، وأهلها منها على وجل، إما بنعمة زائلة أو بليـة نازلة أو منية قاضية.

❋ **وقال الفضيل:** من أراد الآخـرة أَضَرَّ بالـدنيا، ومـن أراد الـدنيا أَضَرَّ بـالآخرة، ألا فأضروا بالدنيا فإنها دار فناء، واعملوا لدار البقاء.

❋ **وعن معاوية قال:** من كانت الدنيا همه طال في القيامة غمه، ومن خـاف الوعيـد لَهَـا عن الدنيا عما يريد، إن كنت تريد لنفسك الجزيل فلا تنم بالليل ولا تقيل، بادر بـادر قبـل أن ينزل بك ما تحاذر، أوه من يوم يتغير فيه لوني، ويتلجلج فيه لساني، ويقل فيه زادي.

نُرَقِّـــع دنيانـــا بتمزيـــق ديننـــا ... فـــلا دينُنَـــا يبقـــى ولا مـــا نرقِّـــعُ
فَطُـــوبَى لعبـــد آثَـــرَ اللهَ ربَّـــهُ ... وجـــاد بـــدنياه لمـــا يتوقـــعُ

❋ **قال قتادة:** إن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء، وإن الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء، فكونـوا ممن يصرم حاجة الدنيا لحاجة الآخرة.

✵ **وقال لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه:** يا بني، إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير، فلتكن سفينتك فيه تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، وحشوها الإيمان بالله تعالى، وشراعها التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ لعلك تنجو.

لَعَمْرُكَ ما الدنيا بدارِ بَقَاءٍ ... كَفَاكَ بدارِ الموتِ دار فَنَاءِ
فلا تعشق الدنيا، أخي، فإنما ... يُرَى عاشقُ الدنيا بجهد بلاءِ
حلاوتُهَا ممزوجةٌ بمرارةٍ ... وراحتُها ممزوجة بعناءِ
فلا تمشِ يومًا في ثياب مخيلة ... فإنك من طينٍ خُلِقْتَ وماءِ

✵**وعن المزني قال:** دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، وقيل في اليوم الذي مات فيه، فقلت: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: فرفع إليَّ رأسه، فقال: أصبحت من الدنيا راحلًا، ولكأس المنية شاربًا، ولسوء فعالي ملاقيًا، وعلى الله واردًا، فلا أدري روحي إلى جنة تصير فأهنيها، أم إلى نار تصير فأعزيها، ثم بكى وأنشأ يقول:

لما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوك سُلَّمًا
تعاظَمَني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أَعْظَمًا
فما زِلْتَ ذا عفوٍ عن الذنبِ لَمْ تَزَلْ ... تجود وتعفو مِنَّةً وتَكَرُّمًا
فإن تعفُ عني تعفُ عن مُتَهَتِّكٍ ... ظلوم غشوم لا يزايل مَأْثَمًا
وإن تنتقم مني فلستُ بآيس ... ولو دَخَلَتْ نفسي بجُرمي جهنما

التحذير من الدنيا:

✵ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**»(١).

تقلب الدنيا:

✵ **قال ابن القيم:** الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج، إنما تخطب الأزواج ليستحسنوا عليها، فلا ترضى إلا بالدياثة.

---

(١) **صحيح:** رواة الترمذي عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٦٥١٠).

ميـــزت بـــين جمالهـــا وفعالهـــا فـــإذا الملاحـــة بالقباحـــة لا تَفِـــي
حَلَفَـــتْ لنـــا ألا تخـــون عهودَنـــا فكأنهـــا حَلَفَـــتْ لنـــا ألا تَفِـــي

السير في طلبها سير في أرض مَسْبَعَة، والسياحة فيها سباحة في غدير التمساح، المفروح به منها هو عين المحزون عليه، آلامها متولدة من لذاتها، وأحزانها من أفراحها.

مـآرب كانـت في الـشباب لأهلهـا عِـذابًا، فـصارت في المـشيب عَـذابًا

* لقد تزخرفت بالشهوات، فَغَضَّ عنها الذين يؤمنون بالغيب، ووقع تابعوها في بَيْدَاءِ الحسرات: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة:٥). وهؤلاء يقال لهم: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ (المرسلات:٤٦).

لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها، أماتوا فيها الهوى طلبًا لحياة الأبد، لما استيقظوا من نوم الغفلة، استرجعوا بالجد ما انتهبه العدو منهم في زمن البطالة، فلما طالت عليهم الطريق، تلمحوا المقصد، فقرب عليهم البعيد، وكلما أمرت لهم الحياة، حلا لهم تذكر: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٣).

وبعد ما ذكرنا:

اعلموا أن الدنيا دار فناء، والآخرة دار بقاء، فخذوا لمقركم من ممركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم.

أرى رجـالًا بـأدْنَى الـدِّين قـد قَنَعُـوا وما أراهـم رَضُـوا في العـيش بالـدُّونِ
فَاسْتَغْنِ بالدين عـنْ دنيـا الملـوكِ كـما اسـتغنى الملـوك بـدنياهم عـن الـدينِ

* * *

obeikandl.com

الفصل الثاني

الموت أعظم حقيقة في الحياة

فالموت أمامنا والقبور تضمنا والقيامة تجمعنا والله يفصل بيننا.

والصبر في النائبات صعب ولكن فوات ثوابه أصعبُ

كل ما ترتجيه قريب والموت من دون ذلك أقربُ

إن أقرب غائب ننتظره هو الموت، كما كان يقول أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمى:

كل امرئ مُصَبَّحٌ في أهلِهِ والموتُ أَدْنَى من شِرَاكِ نَعْلِهِ

سؤال: هل ممكن أن أموت وممكن لا؟

لأني قد أسافر وقد لا أسافر، وقد أتزوج وقد لا أتزوج، وقد أنجب وقد لا أنجب، وقد أكون غنيًا، وقد لا أكون.....

إذن الحقيقة الوحيدة في هذه الحياة هي الموت، لأن الموت كأس والكل شاربه، والقبر باب والكل داخله، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

وحتى يكون الموت أجمل لحظة، فيجب على كل مسلم أن يعلق قلبه بالله، ويخضع لأوامر الله، ويبتعد عن النواهي، لأننا في دار عمل بلا جزاء، وسوف نذهب لدار جزاء بلا عمل، وأول لحظة جزاء عند الاحتضار، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَال يُقَال لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَال: مَنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ، فَيُقَال: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَال يُقَال لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ التِي فِيهَا الله عَزَّ وَجَلَّ، وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَال: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ، فَلَا يَزَال يُقَال لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيستفتحُ لَهَا فَيُقَال: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَال: فُلَانٌ، فَيُقَال: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الخَبِيثِ،**

ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا لَا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَيُرْسَلُ بِهَا مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إلى القَبْرِ»[(١)].

✺ وقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ الله لِقَاءَهُ»، قَالتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكِ وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ الله وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إليهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ الله، وَأَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ الله وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إليهِ مِمَّا أَمَامَهُ كَرِهَ لِقَاءَ الله وَكَرِهَ الله لِقَاءَهُ»[(٢)].

❁**وعن زيد بن أسلم قال:** إذا بقي على المؤمن درجات شيء لم يبلغها بعمله شُدِّدَ عليه الموت، ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجاته في الجنة.

قُـرِنَ الفنـاءُ بنـا جميعًـا ... فـلا يبقـى العزيـزُ ولا الـذليل

والـروح منـك وديعـة أودعتهـا ... ستردها بـالرغم منـك وتـسلب

ويقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ (مريم: ٨٤).

✺ ✺ ✺

(١) **صحيح**: رواه النسائي عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح ا لجامع» (١٩٦٨).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت. واللفظ للبخاري.